حول مؤلفات على عزت بيجوفيتش

بقلم محمد يوسف عدس

(1)

كثيرا ما سألنى القراء فى تعليقاتهم عن مؤلفات على عزت بيجوفيتش .. وتصلنى من وقت لآخر رسائل من الأصدقاء يحثّوننى فيها على إعادة ترجمة كتابين هامين سبق ترجمتهما إلى العربية ونشْرهما فى بعض البلاد العربية (بحجة أن هذه الترجمة ليست كما ينبغى) .. ولا أحب أن أنقل تعليقات هؤلاء الأصدقاء فى وصف هذه الترجمة .. ولا أن أذكر أسماء المترجمين ولا الناشرين ولا حتى أسماء البلاد التى تم فيها نشر هذين الكتابين الهامين .. فتلك قضية جانبية لا تشغلنى كثيرا .. الكتاب الأول هو مذكرات على عزت بيجوفيتش (أسئلة لا مفر منها) والثانى يشتمل على مجموعة كبيرة من أفكار بيجوفيتش وتأملاته فى السجن دوّنها على شكل ملاحظات وتعليقات يومية طوال فترة امتدت على مدار ستة أعوام وهذا الكتاب من أعمق وأبدع ما سطّره بيجوفيتش .. وقد اختار له عنوان : "فرار إلى الحرية" وليس (هروبى إلى الحرية) كما اختار المترجم .. لم أشأ أن أقتنى أو أطّلع على الترجمة العربية لسببين: أولهما أننى مكتفٍ بالترجمة الأنجليزية لهما وهى ترجمة ممتازة تليق بالمفكر العظيم وتبرز فكره فى أفضل صورة .. وقد عُنى بنشرهما مجموعة من أكفأ العناصر فى جامعة أكسفورد .. والسبب الثانى أننى لم أرغب فى قراءة فكر بيجوفيتش مُعبّرا عنه بأسلوب لا يرقى إلى فكره وأسلوبه المتميّزين .. محتفظا له بالصورة المشرقة التى تشكّلت فى وجدانى على مدى سبعة عشر سنة .. ولكن قبل سفرى إلى لندن فاجأنى أحد الأصدقاء بإحضار الكتابين على سبيل الهدية فوضعتهما فى حقائب السفر لأطّلع عليهما فيما بعد .. أشكر صديقى على كل حال .. فلعله كان يسعى إلى حفزى على إعادة ترجمة الكتابين ..

الآن وبعد الإطلاع عليهما.. أصبح من واجبى أن أنبه القراء إلى بعض أمور هامة : فمن ناحيتى انا أشكر الناشرين والمترجمين على اهتمامهما بفكر بيجوفيتش .. وأستطيع أن أقرر أننى لمست جهدا كبيرا وناجحا من وجهة النظر المهنية فى الترجمة .. خصوصا فى كتاب المذكرات .. ولكنى مع ذلك أشعر أن الترجمة أقل كثيرا من الأصل.. ولا يمكن أن تكون تصويرا معبرا عن دقائق و أعماق فكر بيجوفيتش وتأملاته وأسلوبه فى الكتابة .. باختصار لقد تمنيت لو كانت الترجمة أفضل .. ولقد طالما اعتذرت للأصدقاء أننى لم أعد أملك من الوقت والتحمّل أن أنهض بترجمة هذين الكتابين كما أطمح .. ولكننى مستعد لتقديم المساعدة والنصيحة وربما المراجعة أيضا بلا مقابل مادى ولا معنوي .. ذلك إذا رغب المترجمان وقبلا هذا العرض .. فقط لخدمة فكر على عزت بيجوفيتش .. فهذا هو الذى يعنينى بالدرجة الأولى ...

(2)

لقد قمت بترجمة كتاب "الإسلام بين الشرق والغرب" فى ظروف خاصة جدا شرحتها فى مقدمة الطبعتين الأولى والثانية .. ولقيت من الجهد والعنت فى تصحيح الإسشهادات المرجعية المشوشة فى الطبعة الإنجليزية على مصادرها الأصلية (الإنجليزية والفرنسية والألمانية واللآتينية) .. استغرقت الترجمة سنة كاملة شعرت عند انتهائها بانهيار فى قوايا البدنية .. وظللت أتردد على المستشفى لعلاج أوجاع وآلام مختلفة فترة من الزمن .. ولكننى لم أندم للحظة واحدة على مابذلت من جهد لتخرج ترجمة الكتاب على النحوالذى أطمئن إليه ويسعد به مؤلفه .. وقد عبرالرئيس

بيجوفيتش عن ذلك فى جلسة بمنزله فى سراييفو حضرها سفير البوسنة الأسبق فى القاهرة (الصديق أفْديا هدروفيتش) وكان بين الحاضرين من يجيد اللغة العربية ... سألهم بيجوفيتش: ما رأيكم فى الترجمة العربية للكتاب فأثنوا عليها جميعا .. يقول لى السفير (وقد تعلّم هو نفسه اللغة العربية فى الأزهر وأتقنها) لقد أردت أن أطلع الرئيس على جوانب من الصورة أكثر تفصيلا فقلت له : سيدى الرئيس لقد سمعت أحد علماء الأزهر يشكو من الترجمة العربية ... فقاطعه الرئيس بيجوفيتش وقال له بحسم : لا تصدق هذا الكلام فالترجمة ممتازة .. ولست أطمع فى أفضل منها ..! .. سمعت هذه الرواية من سفير البوسنة ولكنه لم يشأ أن يعلن عن إسم ذلك الشيخ الأزهري .. وما ألححْت عليه فى الكشف عن إسمه .. وقلت لنفسى : أنّى لهذا الشيخ أن يعلم إذا كانت الترجمة جيدة أو سيئة .. إنه إذا كان قد فعل فهو يخوض فيما لا يعلم سامحه الله ..؟

كان يهمنى بالدرجة الأولى إقتناع مؤلف الكتاب بالترجمة وقد عرفته .. وتأكدت من ذلك عندما إلتقيت فى مؤتمر بدار الفرقان فى لندن بالأستاذ أحمد منصور الصحفى النابه .. حيث سألته عن انطباعاته عن سراييفو وعن الرئيس عزت بيجوفيتش وهو يسجل معه حلقة فى برنامجه (بلا حدود)، قال أتدرى بماذا أهدانى .. لقد قدم لى كتابك الإسلام بين الشرق والغرب وهو يقول لى: ليس عندى أفضل من هذا الكتاب أهديه إليك .. أمام هذا الإعتراف النبيل هانت كل متاعبى وما عانيته من مشقة فى ترجمة الكتاب .. وحمدت الله الذى ألتمس الأجر عنده هو وحده لا عند سواه.

(3)

لم تكن تجربتى فى ترجمة الكتاب الثانى (الإعلان الإسلامي) لبيجوفيتش بأهون من تجربتى مع الكتاب الأول .. فقد علمت بوجود نسخة له مترجمة بالإنجليزية يتم تداولها فى لندن .. و قد اثار فضولى أن من كان يقوم بنشره وتوزيعه بالمجان مركز إعلامى تابع للسفارة الصربية [كانت لا تزال فى ذلك الوقت تسمى سفارة يوغسلافيا..] .. إستطعت أن أحصل على نسخة من الكتاب بواسطة بعض المعارف .. فلما اطلعت عليه هالنى ما أحدثه الصرب فيه من تشويه بالحذف والإضافة.. ونسبة كلام لمؤلفه أعلم علم اليقين إستحالة أن يصدر منه.. فلا هو يمثل أفكاره ولا لغته أوأسلوبه فى التعبير .. والأدهى من ذلك أن الصرب قد وضعوا له مقدمة مليئة بالافتراءات والأكاذيب ونسبوا له مخططات لنشر الإسلام أولا فى يوغسلافيا بالتآمر مع دول عربية وإسلامية أخرى ثم الإستيلاء على كل دول أوربا لإقامة الدولة الإسلامية الكبرى التى تحكم العالم كله .. وصوره الصرب على أنه [الخمييني الأبيض] عدو المسيحية وعدو الغرب الأكبر .. وكان الهدف من هذه المقدمة تخويف الشعوب الأوربية من بيجوفيتش وعدم التعاطف مع مأساة البوسنة التى صنعها الصرب بعدوانهم الوحشي على شعبها الأعزل .. وتبرير المجازر التى أقاموها هناك فيما عرف حينذاك باسم التطهير العرقي ...

كنت هممت أن أعتذر عن الإطالة والإستطراد .. ولكنى تراجعت عن الفكرة لأنى إذا فعلت أكون قد عبّرت عن شعور زائف أوغير حقيقي .. فما أقوله هنا يصور همّا حقيقيا يؤرقنى .. وأجد من واجبى أن أنبّه إليه الذين يأخذون قضايا الفكر مأخذ الجد .. خصوصا إذا ما تعلقت هذه القضايا بالفكر الإسلامي ورموز الفكر الإسلامي .. الإستطراد هنا إذن ليس فى غير موضعه وليس دخيلا ولا بعيدا عن المناسبة التى تبرّره .. فالمناسبة لا تزال قائمة حتى لحظة كتابة هذا المقال .. ومن أراد أن يتحقق من ذلك فما عليه إلا أن يفتح (جوجول Google) تحت إسم عزت بيجوفيتش أو عنوان كتابه الإعلان الإسلامي: (Izetbegovic.. Islamic Declaration)

أول مادة تطالعك عن على عزت بيجوفيتش (فى جوجول)هى هذه المقدمة الصربية التى سبق الإشارة إليها ، مجردة من هويّتها ومصدرها الأصلى وبدون ذكر لإسم صاحبها .. ربما

إمْعانًًا فى تضليل القارئ .. المهم أن العشرة مواد الأولى الأكثر إستخداما (فيما عدا ملف موسوعة ويكيبيديا) كلها هجوم وتجريح على شخص الرئيس بيجوفيتش وتجريده من كل فضيلة إشتهر بها فى العالم المسلم .. وتشويه آثاره الفكرية .. مع تصعيد حملة الإتهامات والتشويه لتشمل الشعب المسلم فى البوسنة .. حتى لتبدو لك الضحية وكأنها هى المجرم الذى أرتكب كل جرائم الحرب ضد الصرب المساكين ...!! أما الهدف النهائى لهذا الهجوم المخطط فهو الإسلام نفسه .. والمسألة لا تحتاج إلى بحث واستنتاج لأنها واضحة وضوح الشمس فى رائعة النهار .. فكل هذه المواد تصدر من جهات صربية وصهيونية بينها تآزر واتساق وتعاون عجيب لا يمكن تجاهله .. تحاول هذه الجهات إخفاء هويّتها الحقيقية تحت عناوين أكاديمية ومراكز أبحاث إستراتيجية .. فيما عدا عنوان موقع واحد يظهرفيه إسم زعيمهم القومي السفاح "سلوبودان ميلوسفيتش"...

تتعدد أماكن هذه المواقع الإلكترونية وتمتد فى كثير من البلاد تبدأ من صربيا ومن ذلك الكيان المغتصب من البوسنه باسم [صربريسكا] حتى تصل إلى كندا والولايات المتحدة مرورا بإسرائيل وفرنسا وبريطانيا .. ولكن معظمها يصدر من شخصيات صربية معروفة و من جمعيات صداقة صربية وجاليات صربية فى هذه البلاد .. وقد تعجب: ما الذى جمع الصربي على الصهيوني فى عدائهما لرجل واحد هو على عزت بجوفيتش..!!؟ ولكن يبطل عجبك إذا قرأت مقدمة كتابى عن كوسوفا .. فقد عقدت مقارنة بين الصهيونية والقومية الصربية كأيديولوجية .. بيّنت فيها التطابق المذهل بين ألأيديولجيتين .. وكشفت عن السمات المشتركة بين العقلية الصربية والعقلية اليهودية [الصهيونية] .. وانتهيت بهذا التساؤل: تُرى أيهما الأستاذ المبتدع والتلميذ المتّبع .. الصرب أم الصهاينة ..!!؟؟

أول مايطالعك من ملفات [جوجول] هذا العنوان: (بيجوفيتش رئيس جمهورية البوسنة الذراع الأيمن للخميني فى أوربا): إنه السبب فى تمزيق يوغسلافيا .. ولكى تفهم حقيقة شعب البوسنة عليك أن تفهم أولا من هو السيد على عزت بيجوفيتش ..! الذى لا يعرف أحد فى أوربا أنه واحد من اكبرقيادات الأصولية الإسلامية فى العالم ..!!
فإذا كان أول القصيدة كفر كما ترى .. فاقرأ أو لا تقرأ محتواها فالكتاب واضح من عنوانه ....!!

من بين أهم المواقع وأجرأها على الكذب والإفتراء: [مركز البلقان للدراسات الإستراتيجية] الذى قدم مذكرة إلى البرلمان البريطاني يوم 12 ديسمبر 1992 كجزء من الدعاية الصربية التى تسبق الحرب .. يعرّف فيها أعضاء البرلمان بعلى عزت بيجوفيتش الذى بدأت شهرته تتجاوز يوغسلافيا إلى المجتمعات الأوربية .. و فى محاولة خبيثة لتشويه صورة الرجل وإلقاء ظلال من الشك على أهدافه السياسية والدينية يبدأ التقرير بالتركيز على عضوية الشاب بيجوفيتش فى جمعية الشبان المسلمين فى سرايفو قبل الحرب العالمية الثانية .. وكيف انعكست أيديولوجيته الأصولية فى كتاب الإعلان الإسلامي ..[علما بأن هذا الكتاب كان مجرد عملية تجميع قام بها إبنه بكر لمقالات سابقة نشرتها مجلة تاكفين لسان حال جمعية المسلمين فى يوغسلافيا فى فترة حكم تيتو .. ولم يعترض عليها أحد فى ذلك الوقت من القيادات السياسية ولا من مباحث أمن الدولة .. ولكن فى عهد ميلوسفيتش أتخذ الكتاب وسيلة دعائية ضد بيجوفيتش فى محاولة للتخلص من أبرز القيادات الفكرية المسلمة التى يمكن أن تكون حجر عثرة فى طريق ميلوسفيتش لإقامة صربيا الكبرى (القومية) على أنقاض الإتحاد اليوغسلافى (الإشتراكي) .. فى هذا الإطار قُدّم الكتاب بوصفه (منفستو إقامة الدولة الإسلامية) إلى المحكمة كوثيقة إتهام لعلى عزت.. فى قضية ثبت بعد ذلك أنها كانت ملفّقة من أولها إلى آخرها .. وأن تزوير شهادات الشهود قد تم تحت سمع وبصر وزير الداخلية نفسه وبإشراف مباشر من فخامته ...!]

تتعرض المذكرة بعد ذلك لقيادة على عزت الراديكالية لشعبه –بزعمهم- نحو الحرب .. وكأنه هو الذى قام بالعدوان على صربيا ...!! وتنسب المذكرة لعلى عزت الكذب فى وعوده .. كما تنسب إليه تصريحات لم ينطق بها .. مثل قوله المزعوم: كل شيئ جائز فى سبيل الإسلام ، تعليقا على إتهامه بالكذب واللجوء إلى العنف .. وأنه متعاطف مع الثورة الإسلامية فى إيران .. وأنه قام بزيارة تركيا كما فعل الخميني ولم يذهبا لزيارة قبر أتاتورك إذ اعتبراه خائنا لمبادئ الأصولية الإسلامية ...

على هذا المنوال ينسج موقع آخر صاحبه هو (جاريد إسرائيل) .. موقع يحمل عنوانا غريبا [ثياب الإمبراطور الجديدة] .. والإشارة هنا مفهومة.. فى إطار قصة الإمبراطور الذى خرج على الناس عاريا فى زفة قارونية بعد أن أوهمته بطانته أنه لابس أفخم ثياب.. وأوْحوْا إلى الرعاع فصفقوا لجلالة الإمبراطور إحتفالا بثوبه الجديد .. فصدّق نفاق رعيته وإيهام بطانته له وكذّب عينيه .. الطفل الصغير الذى لم يتم إفساده بعد، هو وحده الذى رأىبفطرته الإمبراطور عاريا، والإسقاط هنا على بيجوفيتش الذى أقنع العالم أنه صاحب قضية عادلة وأنه يريد السلام .. لكن جاريد إسرائيل هو العبقري الوحيد الذى أراد أن يجرد بيجوفيتش من ثيابه الزائفة ويكشفه أمام العالم عاريا، ومن هنا جاء مقاله: بعنوان: " من هو على عزت بيجوفيتش ..؟ هل كان جورج واشنطون البوسنة المعتدل .. أم كان المسلم الأصولي القاتل ...!!؟؟
وعليك أن تُخمّن بقية القصة .. فماذا يمكن أن يقول صهيوني خسيس عن مفكر إسلامي عظيم مثل على عزت بيجوفيتش ..!!؟؟

(4)

أعجب العجائب فى هذه المسخرة الفكرية أن تقرأ فى نقد أحد أساتذة الجامعة العبرية بالقدس الشرقية إتهاما لبيجوفيتش يقول فيه الأستاذ الأكاديمي: أن على عزت حث المسلمين على [أن ينفضوا عن أنفسهم السلبية ومشاعر الإحباط والعجز وأن يكونوا عناصر فعاّلة للتأثير والتغيير فى حياتهم الإجتماعية وفى الساحة العالمية ..] جلست أنظر فى هذا الإتهام الغريب وأعيد قراءة العبارة لعلّى لم أكن قد فهمت ، ثم قلت فى نفسى: سبحان الله .. ماذا لو كان قائل هذه النصيحة هو بن جوريون مثلا للإسرا ئيليين .. هل يتهمه أستاذ الجامعة العبرية المحترم بارتكاب جريمة كما اتهم بيجوفيتش ...!؟؟ أم أنه سيمجّده ويثنى على حكمته وإخلاصه لشعبه الإسرائيليّ ..!؟ أم أن المطلوب من المسلمين وحدهم دون سائر خلق الله على هذا الكوكب أن يبقوْا مستسلمين سلبيين عاجزين لا حس لهم ولا خبر .. أنعام يساقون إلى المعلف إذا توفر الماء والكلأ .. ويُقهرون بعصى الأمن الوطنى إذا ظهرت منهم بوادر تمرّد أو تململ .. أو يُعاقبون بطائرات الأباتشى الإسرائيلية عندما تعجز حكوماتهم الرشيدة أن تتحكم فى تمرد بعض المقاومين الأراذل ..!!؟؟

المهم أن على عزت بيجوفيتش قد رحل عن دنيانا وأصبح فى رحاب مولاه منذ شهر أكتوبر سنة 2003.. ولكن الغريب العجيب أن الحرب ضده لا تزال مستعرة إلى هذا اليوم ...
القضية إذن لا تزال ساخنة بل مشتعلة فى عقول أعداء لا يصابون بالملل ولا يركنون إلى السلم ولا يقنعون بشيئ حتى يسقط فى قبضتهم كل شبر أرض سجد عليها مسلم .. أو وطئتها قدم جندي مسلم جاهد فى سبيل دينه .. القضية إذن ليست هى بيجوفيتش .. فما هو إلا رمز ونموذج للمفكر الإسلامي والقائد الإسلامي القدوة .. لقد رحل الرجل ولكن مايمثلة على عزت بيجوفيتش هو الخطر الباقى والحقيقي .. الخطر على كل الجبابرة والطغاة والظلمة .. وعلى كل مغتصب لأرض أو منتهك لحق شعب أو مستهين بحق أمة .. فى الحرية والعيش بكرامة ...!!ُنسب إلى الخليفة الراشد عمر

بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال:" يعجبنى الرجل إذا سِيم الخسفَ أن يقول لا بأعلى صوته .." سمعها بيجوفيتش فاستقرّت فى عقله ووجدانه.. ورددها فى أذن العالم بكل مافى الرجل من قوة الفكر وقوة العزيمة وقوة الإيمان ... إنه الإسلام الذى عاش له و به .. ومات عليه على عزت بيجوفيتش غير مُضيَّعٍ ولا مفتون ... !!

(4)

كان عليّ قبل ترجمة كتاب الإعلان الإسلامي أن أقوم بتصحيحه وإعادته إلى أصله وقد وجدت من يساعدنى فى إنجاز هذه المهمة .. كان طالبا باكستانيا مسلما يحضّر لرسالة الدكتوراه فى لندن وهو من عُشّاق بيجوفيتش .. كتب النص الصربى على حاله الذى وجدناه عليه على الحاسب الآلى بعد حذف المقدمة .. ثم شرعت أبحث فى مكتبات لندن عن جميع الكتب المعنيّة بعلى عزت وفكره ومؤلفاته .. ولأن محاكمته كانت تدور بصفة خاصة حول كتاب الإعلان الإسلامي .. ولأن كثيرا من المؤرخين والكتاب البريطانيين المنصفين كانوا معنيين بتفنيد الاتهامات الصربية للكتاب، وجدت إقتباسات كثيرة ومطولة من كتاب الإعلان الإسلامي فى كتبهم.. كانت ثروة عظيمة أفادتنى فى تصحيح الكتاب وإعادته إلى براءته الأصلية .. بالدرجة التى رضى بها مؤلف الكتاب .. ومن ثم شرعت فى ترجمته إلى العربية كما شرع صاحبى الباكستاني فى ترجمته إلى اللغة الأردية حيث نشر النصين الإنجليزي والأرديّ فى كتاب واحد ...

(5)

عندما صدرت مذكرات بيجوفتش قبل وفاته ببضعة أشهر قمت بتلخيصها وترجمتها ونشرها .. وكان هذا أقصى ما استطعته فى ذلك الوقت بعد أن تغيّرت ظروف كثيرة فى حياتى لا أحب الإفاضة فيها .. فهى مما لا يعنى أحد غيرى .. هذه الكتب وغيرها نفذت طبعاتها من السوق ولم أكن حريصا على إعادة نشرها .. مكتفيا ببعض المقالات التى تُنشر لى هنا وهناك .. لولا حرص أحد الناشرين على جمعها وإصراره على نشرها مشكورا فى سلسلة إختار لها صديقى الدكتور كمال عرفات عنوان: " من المنابع والأصول"...

أما كتاب الإسلام بين الشرق والغرب فتقوم دار الشروق [الأصلية] فيما أعلم بإعداد الطبعة الثالثة منه حاليا للنشر.. وذلك إستجابة لرغبة من الكتور عبد الوهاب المسيري .. الذى حرص على كتابة مقدمة شارحة لهذه الطبعة قبل وفاته فأنجزها وأوصى بأن تتصدر الكتاب ..

وهناك كتاب غير مشهور جمع فيه سفير البوسنة السابق فى قطر عددا من مقالات بيجوفيتش المتناثرة، وقام هو بترجمتها كما قامت بطبعه جمعية خيرية غير مشهورة .. أهدانى نسخة من هذا الكتاب النادر صديقى الكريم الدكتور عبد العظيم الديب (متّعه الله بالصحة والعافية) .. فهو يعلم مدى إهتمامى بجمع كل آثار بيجوفيتش الفكرية .. ولهذه المجموعة من المقالات إتجاه أساسي هو الكشف عن أسباب تخلف العالم الإسلامى وعوائق نهضته .. أحاول تذليل بعض الصعوبات وبعض الغموض فى ترجمتها .. وقد قدمت منها بعض مقالات فى اماكن متفرقة بعضها فى صحيفة (المصريون) هذه .. ويقترح فى هذا المجال بعض الإخوة والأصدقاء جمع كل ما كتبته وأكتبه عن على عزت بيجوفيتش بين دفتى كتاب واحد ليكون مدخلا إلى فكره وشرحا لمؤلفاته ... أرجو الله أن يعيننى على تحقيق هذه الرغبة الكريمة فيما تبقّى من العمر ... كما أرجو أن يجد القراء الذين سألوا عن مؤلفات بيجوفيتش فى هذه المقالة إجابات واضحة على إستفساراتهم ...

وبالله التوفيق.